حتى نهزم اليأس

معنى اليـــأس .. وحياة الأمل

تحدد المعاجم اللغوية اليأس ، بكونه قيمة سالبة ترفض الوقوف والمواجهة ، وتتدثَّر بالوان من الانسحاب ، والقنوط ، ورفض الرجاء ، ومخاصمة الأمل ، وتخييب التطلع .. فإذا سددت المعاجم اليأس في اتجاه معنى العِلْم فإن هذا العلم لا يقصد به مطلق المعرفة ، ولا ظمأ الطموح إلى فضّ أية مغاليق ، وإنما يقصد به معنى تحديد الدائرة ، وانتهاء التشوف ، فلا تنفذ منه إلى آفاق التطوّح ، واستقراء مطالع الأسرار .

واليائسون الذين نصادفهم في هذه الحياة كثيرون ، وأكثر منهم هذه الكلمات التي تتناثر على شفاههم يائسة وقانطة وسوداء ، بحيث يلوح هؤلاء قطيعاً سائماً بلا هدف يحققه ، أو مجموعاً تائهاً بلا قيم تعصمه ، أو قبيلاً حائراً بلا مصابيح من الأمل ، يمكن أن تبدد ما يتراكم على حياته من ظلمات ، وهذا هو حجم القضية المخيف ، الذي ينبغي أن يستنفر جهودنا بلا ملال .

ومن العجيب حقاً ، أن هؤلاء اليائسين يرفعون شعارات الاستسلام وعدم الجدوى ، ويبْدون ـ تحت راية الهزيمة ـ كما لو كانوا مستعدين للدفاع عنها حتى الموت ، ولو أنهم بذلوا هذا العناء الهائل ، تحت راية الإيجاب وليس تحت راية السلب ، نعني تحت راية الأمل ، وليس تحت راية اليأس ، لأمكن أن يصبحوا جنوداً في طليعة المقاتلين من أجل حياتهم وحياة الآخرين ، ولأمكن لهم أن يطلّوا على العالم ، من خلال نوعية من النوافذ المضيئة ، وليس من خلال ثقوب الجدران ، التي لا تفضي في النهاية إلى رؤية متكاملة ، أو حتى متفائلة .

وليت هؤلاء اليائسين ، حين تحصنوا هكذا باليأس الرافض ، كانوا رافضين لما في الحياة من حولهم من ركاكة وتسطيح ، إذنْ لتجاوزوا الواقع الهشّ الذي يعيشونه ، إلى واقع يرفض الهشاشة ، ويكون الرفض فيه حينذاك تمرداً على الجوانب السالبة كافة ، وأيضا على القعود ، أو إسلام الحياة لنوع من الرخاوة السهلة ، المفضية في النهاية إلى عبثٍ فارغٍ من المضمون .

ولكن القانطين يحيون في أبد الخمول ، ويتوقون إلى حياة مثالية ، تُعْطَى بلا معاناة ؛ ومن هنا فهم يحاولون فلسفة يأسهم الهارب ، وتبرير هزائمهم المتوالية ، وإدانة الأمل لا اليأس ، زاعمين أن الأمل سراب ووهم ، وأن اليأس هو منطق العقل في مواجهة قوانين الأشياء ؛ التي لا تأبه بمنطق ولا تعقل ؛ وتلك واحدة من أغاليطهم الغليظة !!

الأمـل يفجرّ طاقـات الإنسان

إن هؤلاء اليائسين في حاجة شديدة إلى تعديل سلوكهم الهابط ، وتسديد تفكيرهم الركيك ، وتسليح ذواتهم بمنطق الحياة لا بمنطق الموت ، ودفعهم إلى مواجهة تجارب الوجود مرة بعد مرة ليذوقوا من خلال هذه المواجهات قساوة الفشل ، وحلاوة النجاح ، فربما رفعوا ـ في النهاية ـ راية الرفض في وجه الفشل ، وربما نشأ بينهم وبين النجاح نوع من التجاوب المفضي إلى استمرارية النجاح .

قد لا ننكر أن بعض هؤلاء اليائسين ضحايا قصور معين ، عن بلوغ غاية معينة ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر كذلك : أن في أعماق كل إنسان طاقات لا حدود لها ؛ من القدرة على العمل ، ومن القدرة كذلك على التكيف ، وتحقيق الذات في مجال آخر ؛ غير المجال الذي لم تستطع تحقيق ذاتها فيه ..

فقد لا يفلح إنسان ما ، في أن يكون طبيباً مثلاً ، ولكنه بالتأكيد مؤهل لكي يكون مهندساً ، أو عالم ذرة ، أو شاعراً ، أو رجل فكر اجتماعي ، أو واحداً غير هؤلاء ... شيء واحد ينقص الإنسان ، هو أن يكتشف ، وأن يعرف طبيعة قدراته ، وأن يتوجه إلى ما يجد .

فإن الطريق إلى اكتشاف حقيقة الذات هو أول الطريق إلى تحقيق نجاحات بلا حدود ، مع التسليم بأن اكتشاف حقيقة الذات ، يحتاج إلى كثير من المعاناة الفاهمة ، وإلىَ نوعية من الثقافة الجادة ، وإلى استمرار المحاولة ، حتى يعثر على اتجاهه الذي يجيد فيه العطاء والابتكار ، فإن فَعَل فقد وجد طريقه المفضية به إلى التوفيق ، وعَبَر كثيراً من المزالق التي قد تصيبه بارتباك الرؤية وضلال الاتجاه ، ولعل ذلك بعض حكمة الوحي الإلهي في القرآن الكريم :﴿ وفي أَنفُسِكُمْ أفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ فإن الدعوة هنا موجهة إلى قوة الوعي بخالقية الخالق ، وأيضاً إلى قوة الوعي بمكامن الطاقة ، في تكوين إنسانية الإنسان !! وبهاتين القوتين يتوقّى الإنسان مزالق اليأس ، ويفتح أبواباً لديمومة الرجاء !!

معاقرة الانحراف تبدأ من اليأس الذاتي أو الغـــــيري

ولأنَّ اليائسين يعيشون في تلبد نفسي غائم ، نتيجة الإحباط المستمر ، فهم يشكلون خطراً على البناء الاجتماعي ، بما يشيعونه من فلسفات يائسة متشائمة ، قد تتسرب ببريقها اللامسئول إلى جهل الشباب الطالع ، فتطفىء في عيونهم بريق الأمل ، وتشل في جوارحهم

بقلم : الدكتور محمد أحمد العزب

في واقعنا المسلم

طاقة العمل ، وتوجههم إلى مزيد من عناصر التخلي واللامسئولية والهروب ... ومن هنا يستحيل هذا القطيع اليائس ، ليس إلى مجرد يأس مغلق على ذاته ، وإنما إلى مصدر من مصادر تفريخ الشر ، الذي ينقل غلاظة آثاره المدمرة إلى الآخرين ، فيصيب الحياة بنوع من السقوط والتقاعس .

ولعلنا لا نهمل حقيقة أن تقليد التخلي أكثر شيوعاً من تقليد المواجهة ، وهذه واحدة من بوائق هذا النمط السلوكي الجانح إلى صغائر الأمور ، والناقل عدواه إلى غيره بلا حدود !!

وقد يخيل إلينا أن معاقرة الانحراف تبدأ من هذه المنطلقات : من اليأس الذاتي ، أو اليأس الغَيْرِيّ .. الفردي أو الجماعي ، التي تندفع كلها في اتجاه تعويضٍ متخيَّل ، أو هروبٍ يظنون أنه يريحهم لحظة هنا ولحظات هناك .

إنّ رَتَل الانحرافات ينبعث بعضُه من تجارب ذاتية مزلزلة ، وينبعث سائره من تجارب غَيْريَّة منقولة أو مقلدة ، فإدمان المخدّر والمسكر ، تبتدىء طريقه الوبيلةُ من إغراءات غَيْريَّة ، يزين بها طائفةٌ من الجانحين لغيرهم عوالم الغياب واللاوعي ، وما تثمره هذه العوالم في زعمهم من رؤى ملوّنة ، وانعتاق يحلق فوق حدود الضرورة الواقعية الغليظة ... حتى في الفكر الأدبي نجد من يؤلف داعياً إلى حتمية المخدّر في تشكيل تجربة فنية رائعة ، لأن الإبداع - كما يدعي - غياب عن شروط الواقع الضامر ، وتدمير لمنطق الأشياء في سوائها الطبيعي ، مثل « كولن ولسون » .. وحتى في العلاقات بين الجنسين ، نجد من يلوّن للآخرين فعل المخدّر والمسكر ، وكيف تنقلهم هذه التجربة إلى عوالم من النشوة لا يستطيعونها بغير هذا الفعل ... وهكذا يتواتر مَدُّ هذه الظاهرة من مجرد دائرة ؛ إلى الانسياح في دوائر بلا حدود ... ولو أننا أحسنّا التعامل مع هذه الظاهرة وهؤلاء الجانحين ، لعرفنا كيف نؤكد لهم أن الغياب قد يعطي راحة آنية ، ولكنه بالتأكيد يعقب تدميراً في كل الآناء .. فَأَنْ تُخَدَّرَ في لذاذة عارضة عن مواجهة مصيرية فليس معنى ذلك أن المواجهة انتهت إلى حلّ ، وإنما معناه أنك نسيت حلّها للحظات فحسب ، وأن حجمها في هذه اللحظات قد تنامى ؛ وربما تضاعف ... وليتنا نستطيع تفهيم من يظن أن الإبداع غياب ، حتميّةَ أن الغيابَ مشروط بالحضور وليس النقيض ، أي أنني أغيب عن الوعي المحدّد إلى محاولة استكناه حقائق غير محددة ، وليس هذا الغيابَ الذاهلَ حتى عن كونه الخاص ... وليتنا نستطيع كذلك تفهيم من يظن أن المخدر مدخل إلى لقاء جنسي مثير ، أنه قد يكون كذلك في جولة أو حتى في جولات ، ولكنه بالتأكيد يصيب الطاقة كلها في النهاية بالعجز والتشتت وحتمية القصور .... وإذن فلو أننا أحسنّا التعامل مع هذه الظاهرة ومع هؤلاء الجانحين ، لعرفنا كيف نؤكد لهم أن هذه الإغراءات مدخل إلى دمار ذاتي وجَمْعِيّ ، وأن هوة يأسٍ كَوْنيٍّ يمكن أن تكون نهاية رحلة حياة بمثل هذا التسطيح !!

جـــوهر الوجـود الإنسانـي

ولعلنا لو تأملنا حقائق الفرق بين جوهر الوجود الإنساني ، وجواهر الوجودات الأخرى لأدركنا أن الوجود الإنساني يمتاز بكونه موقفاً ، وعلامة تحوّل ، بينما الأشياء وجود يابس ، لا يحقق لذاته أي موقف ، ولا يصير إلى غير ما هو على الإطلاق ... وهذا وحده كفيل بأن يعقد بين الإنسان والمستقبل صداقة حميمة وجادة .. وبأن يسلحه ضد اليأس ، فلا يناله اليأس حتى في أحلك مآزق التاريخ .

نعني : أن الإنسان وحده ، يفكر في ذاته ، ويستطيع بهذا التفكير في الذات ، أن يصير إلى أفضل مما هو بكثير .. أي أنه : على موعد دائم مع المستقبل ، لا يبيح له وأد آماله بمزيد من التشاؤم القانط ، واليأس المدمر ؛ والانتحار البطيء أو السريع ، وكيف ؛ إذا كان مستلب الوعي والضمير ؟

والإنسان المسلم بالذات ، مرشح لفهم هذه القضية أكثر ممن عداه ، لأن الإسلام لا يخاطب المستقبل الزمني وحده ، ولكن يتجاوز حدود الزمن الوجودي إلى ما وراء الوجود من أزمان .. نعني إلى الزمن الأبقى من الزمن ، إن صح هذا التعبير ، وهو الزمن الأخروي ، فتنفسح بذلك أبعاد الأمل ، أمام كل البشر فلا يقصبهم يأس ، ولا يستبدّ بخطواتهم كلال نابع من إحساسهم الجارف بعبثية وجودهم في الوجود .. كما تذهب إلى ذلك بعض الفلسفات المعاصرة ، التي تحاصر شبابنا فيما يشاهدون للأسف ، وفيما يقراون .

كيـــف يتعامل الإسلام مع اليائسين

والإسلام يتعامل مع هؤلاء اليائسين تعاملاً شجاعاً بلا حدود ، فهو يرفضهم ، ويتهددهم ، ويدينهم إلى حدّ التكفير .. عاقداً بين يأسهم الحياتي ، ويأسهم العقيدي ، ما يشبه الصلة العضوية .

فالقرآن الكريم يقول :

﴿ يَابَنِيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من رَوْحِ الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .. ويقول ﴿ والذينَ كَفَرُوا بآياتِ الله ولقائِهِ ، أُولَئِكَ يئِسُوا مِن رَحْمَتِي ، وأولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾!!

حتى نهزم اليأس في واقعنا المسلم

والإسلام يضع الإنسان في موضعه الطبيعي ، على خريطة الواقع ، فهو مستهدف للخير والشر ، ولليسر والعسر ، وللوفرة والفقد .... ومن هنا ينبغي أن يكون مؤهلاً للاحتفاظ بإنسانيته في هذه وتلك ، حتى لا يفقد ذروة التكريم ، الذي منحته إياه السماء .... فالقرآن الكريم يقول :

﴿ وكأيِّن مِّن نَبيٍ قَاتلَ مَعَهُ رِبِّيُّون كثيرٌ ، فما وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ في سبيلِ اللهِ ، وما ضَعُفوا وما اسْتَكَانوا ..﴾ويقول ﴿ ولنبلونَّكُمْ بشيءٍ مِنَ الخوفِ والجوعِ ، ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ ، وبشِّرِ الصَّابرينَ ﴾ ..

والإسلام لا يغلق الدائرة على اليائسين مع يأسهم ، داعياً إلى شجاعة الصبر ، ثم لا شيء ... ولكنْ يفتح لهم عديداً من نوافذ الأمل ، حتى في أحلك ساعات الظلام .... فالقرآن الكريم يقول :

﴿ وهو الذي يُنزِّلُ الغيثَ من بعدِ ما قَنَطُوا ، وينشرُ رحمتَهُ وهوَ الوليُّ الحميدُ ﴾ ويقول ﴿ قلْ يا عِبَادِيَ الذينَ أسْرَفُوا على أنفُسِهِم ، لا تَقْنَطوا مِن رحمةِ اللهِ ، إن اللهَ يَغْفِرُ الذنوبَ جميعاً ، إنه هوَ الغفورُ الرحيمُ ﴾ .. ويقول : ﴿ لا تَهِنُوا ، ولا تَحْزَنُوا ، وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ، إن كُنتُمْ مؤمنينَ . إنْ يمسسكم قَرْحٌ ، فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مثلهُ ، وتلكَ الأيامُ نُدَاوِلُهَا بينَ الناسِ ﴾ .

صوت النبوة في محاربة اليأس

ومن المؤكد .. أن صوت النبوة ـ في محاربة اليأس ، والتمهيد لحضارة الأمل ـ كان صوتاً مكملاً للنداءات القرآنية الجليلة ، التي طاردت اليأس ، ومكّنت للأمل ، ودعت إلى حياة إنسانية ، تتواتر فيها فتوحات الجهد البشري ، وتتوالى فيها انتصارات هذا الجهد بلا حدود .

والرائع أن أحاديث النبيﷺ في هذا الصدد ، تضيء جوانب هذه الظاهرة ، من الاتجاهات .. فهي تحاول أن تمسح على جراح الشخصية الإنسانية ، التي انحرفت عن الجادّة ، حتى لا تلجّ هذه الشخصية في تعشّق الجنوح ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رسول اللهﷺ قال :(كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون) .. من هنا : تستيقظ المحاولة في المتردّي ، ولا يستبد به يأس الانحدار إلى الهاوية ...

والنبي ﷺ ، يرفض أن يتخلى عن الذي حاول وسقط .. فعن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ ، في ثمار ابتاعها ، فكثر دينه فأفلس فقال رسول الله ﷺ : « تصدقوا عليه » ، فتصدق الناس عليه ، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه ، فقال رسول الله ﷺ لغرمائه « خذوا ما وجدتم ، وليس لكم إلا ذلك) !! فهنا محاولة نبوية لإقالة عثرة العاثر ، حتى لا يستبد به يأس مدمر ، ولا يرفض المحاولة الشجاعة من جديد .

والنبي ﷺ يحرّض فينا طاقات الفعل الحياتي ، حتى لانفاجأ بالعجز عن هذا الفعل فنسقط في براثن اليأس والإحباط .... فعنه ﷺ أنه قال : (ابن آدم : اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك ، وغناك قبل فقرك) فهنا دعوة إلى الامتلاء ، قبل حلول مواعيد الذبول !!

ويلوّح النبي ﷺ ، بقيمة الإيجاب والفعْل في قوله : (إن قامت الساعة ، وبيد أحدكم فسيلة ، فاستطاع ألّا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها ، فله بذلك أجر) : فهنا رفض للتخلّي ، ورمز لحتمية أن نزرع ، حتى ولو تأكدنا أن الرحيل قبل مواسم الحصاد !!

ويحاول ﷺ ، أن يلفتنا إلى ما فينا من قدرة على الفعل ، وإلى ضآلة المسافة المنوط بنا قطعها فيقول :(الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك) وهنا دَفْعٌ بالإنسان إلى صراط دقيق ، قد يميل به هنا ، وقد يميل به هناك ، ولكن المهم أننا نستطيع أن نسلك سبيل احْتياز الجنة بيسر إذا أردنا !!

وإذا كانت الحياة ، هي إطار الفعل الإنساني ، الذي يقترب به من تحقيق وجوده وغاياته من وجوده على السواء .. فإن النبي ﷺ يهيب بنا أن نتعشقها ما دمنا قادرين على الفعل من خلالها ، فإن عجزنا .. كان الموت أغدق رحمة بنا من الحياة :(اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي .. وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي) ولأن النبي ﷺ كان هذا القائد المقاتل ، الرافض لكل عناصر الترهّل والعجز ، فقد كان دعاؤه الأثير : (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والهرم ، والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وضِلَعِ الدَّيْن ، وغلبة الرجال) ....

ويؤسسّ النبي ﷺ لإنسان تاريخي جدير بإنسانيته وتاريخه معاً أيْ جديرٍ بحمل أمانة الفعل الذي ينقل الحياة من مجرد الصيرورة إلى رشاد التوجه في هذه الصيرورة : فيقول في دعائه الحميم : (اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفرلي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلٰهي ، لا إلــه إلّا أنت ، ولا حول ولا قوة إلّا بك) ... هنا تستحيل الأشياء إلى مجرد إطار يعيش داخله إنسان هذه الوضعية ، ويستحيل هذا الإنسان الكوني إلى زَخَمٍ عقيديّ ، يتحرك بالله ، ويحرّك في اتجاهه كل محاور الأشياء .

ويعمقّ النبي ﷺ في خلد المسلم إحساسه بمسؤولية الإنسان المثال ، الذي لا يستسلم للقهر ، ولا للانتقام الأسوأ من القهر ، لأن مسؤوليّته تتجاوز السطوح العابرة إلى الدخول في أبهاء سرائر الأشياء ، فيقول ﷺ : (أوصاني ربي بتسعٍ أوصيكم بها : أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ، ونظري عبراً) .

وهكذا .. يتردد الصوت النبوي الكريم ، بين هدهدة الجراح ، وإقالة العثرة ، والدعوة إلى الإيجاب ، والتحريض على الفعل ، والتحذير من الجنوح ، والاستفادة من الرحلة الحياتية ، والتوجه إلى الله بالعياذ بهسبحانه من كل ما يُقْعِد ويَشُلُّ ، واللياذ به ، والانحياز عمن سواه ،

وديمومة التصدي للعطاء حتى ولو شهروا في وجوهنا كل خناجر حقدهم الأسود .. وفي ذلك تلويح مضيء بأن الوجود الإنساني للأمل، وليس لليأس، ولمزيد من الفعل وليس لمزيد من الهروب، ولديمومة الرحلة وليس إلى معالجة الموت قبل الموت، فقد تهدد الإسلام كل من يقترب من هدم الإنسان، لأن هذا الإنسان بنيان الله في الأرض، وملعون من هدم بنيانه !!

تاريخ المسلمين شاهد على أصالة الوعي الإيماني وجدّية الحركة

وإذا قلنا: إن القرآن الكريم .. يستنقذ الملكة الإنسانية من مخالب اليأس والقنوط، ويدفعها في اتجاه التحقيق والفعل الإبداعي ... وإذا قلنا كذلك: إن السُنَّة النبوية ترسي في وعي الإنسان المسلم انه للإيجاب وليس للسلب، وان وجوده مساحة لتحقيق التقدم، وليس لتحقيق الدمار ... فإننا نستطيع أن نقول كذلك: إن تاريخ الحركة الإسلامية، كان تصديقاً لهذا الاتجاه القرآني والنبوي ... فالمسلمون في مطالع الدعوة واجهوا ألواناً من الاضطهادات الفادحة، التي كان يمكن أن تقتلع الجذور من ترابها؛ ولكن أصالة الوعي الإيماني، وفدائية الحركة المسلمة، ربطت على قلب هذا الرعيل الأول، فرفض أن يستسلم لليأس، وقاتل كل التحديات الباهظة، واستطاع أن يخرج من مآزق المواجهة، أكثر صميميَّة، وارسخ يقيناً بالمستقبل المنشود ...

ولقد واجه المسلمون عديداً من الهزائم المادية، في معارك القتال مرة .. وفي ارتداد بعض من آمن مرة اخرى .. وفي اكتشاف عناصرَ منافقة في صفوفهم مرة ثالثة .... إلى غير أولئك من كوارث كان يمكن أن تصيبهم بنوع من التراجع، أو حتى بنوع من التوقف عن مواصلة الزحف .. ولكن ذلك كله لم يقعد بهم عن المحاولة المجدَّدة، واستئناف التوجه إلى ضرب معاقل الشرك، والتمكين لحضارة التوحيد .. فكان هذا التحقُّق التاريخي المسلم، الذي فرض إيقاعه على الزمن، في شتى العصور، ولا يزال.

وما احوجنا نحن الآن، ونحن نخوض أقسى معارك التحدي، ومحاولات التذويب، أن نسترجع هذا الصمود التاريخي المسلم، حتى نستعيد ذواتنا المفقودة، وحتى نرفض الهزائم الداخلية والهزائم الخارجية كذلك، وحتى نمتلك اقتدارنا على أصالة الفعل، وحتى نتعالى على منطق الهروب اليائس من شتى المواجهات، في شتى المجالات !!

كيف نبني حضارتنا الإسلامية من جديد ؟

ونحن بعد، مطالبون دائماً ببناء حضارة إسلامية، خالية من التهدم الشائه، أو التفلّت الممرور .. نحن مطالبون بإصلاح مناهج التربية، فنميل بها إلى شاطئ الفعل، وليس إلى مجرد الثرثرة ... مطالبون بالكفّ عن الإرهاب في الفكر، وفي السياسة، وفي الاجتماع .. حتى نستطيع بناء جيل سويّ، ينطلق من قناعات مؤمنة، وليس من خوف مشتت .... مطالبون بتنمية روح الجماعة في الأفراد، حتى لا ينغلق كل على ذاته، فيعجز عن تحقيق أي فعل تاريخي، فيصاب بالإحباط والارتباك ... مطالبون بفتح مصحّات نفسية شعبيــة لليائسين، والهاربين، والانسحابيين، حتى لا نتركهم فريسة لهذا السلب المدمر، فنخسر بهم عناصر، يمكن أن تكون صفاً في جيش المواجهـة المحتومة ... مطالبون بدفع موجات عارمة، من الاعتزاز بقيمنا .. وتراثنا .. واصالة انتمائنا العقيدي .. مع الحرص الحريص على أن يتم كل أولئك في غير مصادمة؛ لا مع الحاضر، ولا مع المستقبل، فنحن مؤهلون اكثر من غيرنا للقاء المستقبل بلا هروب ... مطالبون بأن نزرع في وعي الأجيال قيم التطلع إلى الممكن والمتاح، لا إلى قيم المستحيل والخارق، فإن وعي الأجيال بهذه الإمكانية يتيح لها مزيداً من الأمل، ويبعدها عن مزيد من مزالق اليأس، إن الطالب في مراحل الدراسة الأولى ينبغي أن يتوجه إلى المراحل التالية وليس إلى المرحلة القمة هكذا فجاة ... وكذلك المريض ينبغي أن يتطلع إلى عافية محدودة أولاً ثم إلى تمام العافية آخر الأمر .. وكذلك الزارع .. ينبغي أن يحرس بالأمل بذاره، ثم سنابله، ثم حصاده .. وهكذا في كل قطاعات المجتمع الإسلامي .. لأن التطلع البدئي إلى كمالات غائيّة قد يصيب صاحبه بنوع من الإحباط المستمر .. وقد فطن علماء التربية الإسلامية إلى هذه الحقائق فأكّدوا على عدم إلقاء الغايات في البدايات، وأوصوا بالتدرج العاقل، الذي لا يصيب المتلقي بنوع من تشاؤم اليأس، أو يأس التشاؤم بلا تبرير.

ولا يظنَّن ظانّ أن اليأس قضية فردية تصيب بوبالها آحاداً من الناس فحسب، ولكنها قد تصيب المجموع، فتتيبس فيه روح التطلع والطموح: قد تصيب المجموع المستعْمَر فييأس من الخلاص، وقد تصيب المجموع الجاهل فيتقاعد عن التثقف .. وقد تصيب المجموع المتخلف فيقنط من طِلاّب الحضارة .. وقد تصيب المجموع المتفكك فلا يرى مستقبلاً للتلاحم والتوحد .. وقد تصيب المجموع الهازل فيهرب من مسؤولية الالتزام .. وقد تصيب المجموع الطاغي فيخاف من زحف العدالة .. وقد تصيب المجموع الفقير فيهرب من مجرد التفكير في الوفرة ... إلى آخر ما هناك من مستويات التوجه الجمْعي في هذا الاتجاه الوبيل ... وإذنْ فاليأس قضية جمعية كما هو قضية فردية .. وفي هذا تكمن خطورته كظاهرة تصيب قنيصتها بالشلل، وتترك أعطابها في كل ما تلامسه، فإذا هو بوار مخيف !! ولو اننا تعمقنا قليلاً لرأينا كيف أن ظواهر الوجود تعلمنا درس الأمل: فالصغير يكبر، والواحد يتكثّر، والقاحل يخضرّ، واليباب يزدحم بالبناء .. وتلك كلها دعوات مفتوحة إلى أملٍ حميم.

نحن مطالبون إذن بهزيمة اليأس فينا وفي الآخرين .. وبالتمهيد لحضارة أولها يبدأ من الأمل .. وآخرها لا ينتهي بانتهاء كل الآمال ـ فالإنسان المسلم ـ كما أراده الله ـ محاولة مستمرة، ومستقبل يولد من مستقبل، وصيحة رجاء تملأ جوانح الكون بعبق الجنة، حتى وإن كان زفير جهنم يدمدم من حوله في كل اتجاه !!!

■